الفصل الخامس

الأسس النظرية للفلسفة

الفصل الخامس
الأسس النظرية للفلسفة

إن الخطاب الفلسفى يتأسس انطلاقا من خصائص معرفية، تجعل المفهوم كعنصر إجرائى ونظرى يقوم بدور منهجى كبير من أجل تحقيق الصياغة النهائية للنسق الفلسفى، لكن المفهوم "كهوية" متطابقة مع ذاتها أو كمفهوم بكل ما يحمله من أبعاد تجريدية، يتمفصل فى المتن الفلسفى انطلاقا من تركيبات مفاهيمية تمنح للخطاب فى شكله النهائى ألفاظه الاصطلاحية والتقنية، ويمكن أن نعتبر تلك التركيبات بمثابة الفضاء المعجمى للفلسفة.

فما المقصود إذن بالمعجم (Lexique)؟ إنه اصطلاح يطلق عادة على: «**على أنواع خاصة من الكتب، وهى التى تحتوى على لائحة من الألفاظ التى يستخدمها مؤلف بعينه، أو التى تستخدم فى علم أو تقنية..إلخ، كلما تطلق على القواميس (Dictionnaires) الثنائية التى تقتصر على تقديم كلمات لسان موضوعة فى موازاة كلمات لسان آخر لترجمتها.**

وأما من زاوية علم اللسانيات، فإن كلمة معجم، على العكس من ذلك، تعنى نقيض ما تعنيه كلمة "مفردات" (Vocabula ires) فالمعجم هو مجموع الوحدات - وبالخصوص الكلمات - التى يمكن لجماعة بكاملها أن تمتلكها وتعبر بها عن طريق اللسان، أما كلمة "مفردات" (Vocabulaires) فإنها تعنى مجموع الكلمات التى يستعملها بالفعل شخص معين فى ظرف معين. وهكذا فإن "المعجم" هو مجموع مفترض، بينما "المفردات" هى مجموع تحقيق بالفعل»[1].

إن الحديث عن معجمية فلسفية هو نوع من التنظير الفلسفى حول الفلسفة أى فلسفة شارحة أو واصفة Métaphilosophie على الأقل على مستوى الألفاظ والكلمات التى يتشكل منها نسيج الفلسفة. ومثل هذا العمل يتسم بصعوبة كبيرة تعود

---

(١) جان باتيس مارسيليزى، المعجم - ترجمة : د. عبدالعلى الود غيرى - مجلة : دراسات أدبية ولسانية - المغرب - العدد ٦ - ربيع ١٩٨٧ - ص٥٨.

فى الأساس إلى كون أن الخطاب الفلسفى هو فى حقيقة الأمر مجموع خطابات بصيغة التعدد وليس خطاباً واحداً متجانساً، وهذا التعدد لا يرتبط فقط باختلاف المناهج والتيارات الفلسفية ولا يعود إلى الفروق الموجودة بين الفلاسفة، بل إلى ثراء وزخم النص الذى يبدعه كل فيلسوف. فالأمر لا يتعلق إذن بإجراء إحصاء أو مسح شامل لمعجم الفلسفة، فالمسألة تتطلب فى واقع الحال وضع سلم خاص بالأولويات، يأخذ بعين الاعتبار المفاهيم الأكثر تداولاً فى سياق العمل الفلسفى، ليس فى سياق محاولة تسعى إلى تحديد عناصر المنهجية الفلسفية من أجل بلورة نظرية عامة حول طبيعة المعرفة فى الفلسفة ولكن من أجل توضيح الخصائص التعبيرية والأسلوبية التى تسهم فى إقامة الخطاب الفلسفى، لأننا نعتقد أن مقتضيات الكتابة الفلسفية هى التى تفرض على الفيلسوف جهازه المفاهيمى وشكل التعبير الذى يتبناه.

١ - العقل والعقلانية :

إن مفهوم العقل هو من المفاهيم التى يتحدث عنها ومن خلالها كل من تربطه صلة قرابة بالفلسفة، فهو بحسب الصيغة الديكارتية التقليدية "أعدل الأشياء قسمة بين الناس"، ومع ذلك فإن سعة انتشاره، لا يعنى وضوحه بالقدر الكافى عند من يقومون باستعماله ومن الألفاظ التى تشتق منه نجد، مصطلحى معقول وعقلانى، حيث يرتبط الأول - كما يشير إلى ذلك غرانجر Granger - بالاستعمال الشعبى وفى مجال الممارسة اليومية، أما الثانى فله حضور مباشر فى الاستعمالات ذات الصلة بالجانب النظرى والعلمى.

وهذا التنوع فى معانى العقل هو ما يدفعنا إلى القول مع غرانجر، أنه «**لا يمكن أن يعرف بشكل جدى إلا فى إطار سياق ما، فهو ليس لفاظاً** Notion **بسيطا معطى بشكل مباشر، بل هو من المركبات** complexes **الثقافية الأكثر غنى من حيث المعنى ما بين ما يمكن أن تتوفر للملاحظة والتفكير**»[١]. لأن الحديث عن العقل والعقلانية كمفاهيم إجرائية يتم فى سياق كل الاختصاصات وفى كل العصور والأزمنة وضمن فضاءات

(١) Gilles - Gaston Granger : La raison "Coll./ Que suis - je?" Ed. D.U.F 10ème édition corrigée - novembre - 1993 - p.7.

ثقافية شاسعة ومتعددة يأخذ خلالها العقل أحيانا، صفات متناقضة ولكن حيوية فى نفس الوقت فمن التبرير العقلانى إلى توظيف العقل فى مجال العلم تبدو الهوة كبيرة، لأن «**التبرير العقلانى** (la rationalisation) **هو إنشاء رؤية منسجمة، كلية عن الكون انطلاقا من معطيات جزئية، من نظرة جزئية، أو من مبدأ وحيد. وهكذا فإن رؤية وجه واحد من الأشياء (المردودية، الفعالية)، والتفسير من خلال عامل وحيد (العامل الاقتصادى أو السياسى) والاعتقاد بأن الشرور التى تعانى منها الإنسانية راجعة إلى علة وحيدة وإلى نوع واحد من العوامل، هو مظهر من مظاهر التبرير العقلانى. يمكن للتبرير العقلانى أن يقيم، انطلاقا من قضية أولية عبثية تماماً أو استيهامية، بناء منطقياً ويستنتج منه كل النتائج العملية**»[1]. كما أن العمل على إسقاط مظاهر العقلانية العلمية وتقنيات العقل العلمى فى مجالات مغايرة يؤدى إلى إخماد روح المغامرة داخل العقل وتحويله إلى مجرد قواعد شكلية عاجزة على إثارة قدرة الإنسان اللامتناهية على الإبداع والابتكار، فالعقل كما يقول إدغار موران Morin «**يتضمن فى باطنه نفسه لا عقلانية مخفية يصبح العقل أحمق عندما تنطلق من عقالها هذه اللاعقلانية المتسترة، وعندما تصبح سيدة العقل وموجهته، أى عندما يتحول تطور العقل إلى انفلات لما ليس معقولاً وعندما تتم فى هذا التحول العملية التى يطلق عليها هوركها يمر وأدرنو التحطم الذاتى للعقل**»[2]. لذلك فالعقلانية عليها أن تتجاوز الطابع المنغلق للعقل الذى كثيرا ما يقصى ظواهر فى غاية الأهمية والتأثير فى حياة الإنسان، لمجرد أنه لم يستطع أن يستوعبها ويخضعها لقوالبه الجاهزة، ويمكن أن نخلص إلى القول مع "موران" إلى أن «**العقل ظاهرة تطورية لا تتقدم بصورة متصلة وخطية، كما كانت تظن ذلك النزعة العقلانية القديمة، بل أن العقل يتطور عبر طفرات وإعادة تنظيم عميقة. وقد تصور بياجيه جيدا هذه السمة "النشوئية" للعقل "فى الأخير فرضت نفسها على عدد ضئيل من الباحثين فكرة أن العقل ذاته لا يشكل ثابتاً مطلقا، بل ينشأ بالتدرج عبر سلسلة من الصياغات الإجرائية المبدعة للمستجدات والمسبوقة بسلسلة لا تنتهى من الإنشاءات قبل الإجرائية**

---

(١) إدغارز موران : تساؤلات الفكر المعاصر - (مقال من أجل عقل متفتح) ترجمة: محمد سبيلا - دار الأمان - الرباط - المغرب - ط١ - ١٩٨٧ - ص٩.

(٢) المرجع نفسه - ص ١٣.

المتعلقة بالتنسيق بين الحركات والتصرفات والعائدة ضمنيا حتى إلى التنظيم المرفولوجى التناسلى والبيولوجى، عامة"..»[1].

لقد اتخذ العقل عبر التاريخ عدة أشكال من معناه البسيط باعتباره تفكيرا سليما إلى معانيه المعقدة والمركبة عبر لحظات التاريخ المتعاقبة، التى بدأت فى التبلور بشكل متطور مع التأسيس المنهجى للعقلانية الديكارتية التى أرادت أن تطال مختلف مجالات الحياة الإنسانية، ثم مرورا بالعقلانية النقدية كما شيدها "كانط" للإقصاء الاستعمال الميتافزيقى للعقل ضمن أفق "النومين" أو "الشىء فى ذاته" ووصولا إلى العقلانية النسقية الصارمة كما وضع قواعدها هيجل فى سياق اكتشافه الكبير **«للخاصية التاريخية للعقل، ومظهر إبداعيته المتواصلة فليست ملاحظة الفكر الإنسانى فى لحظة معطاة من الزمن هى التى تمدنا بصورة العقل، ولكن تاريخ العلم ذاته»**[2]. حيث يتمظهر العقل كشكل من أشكال الإنجاز الجدلى عبر التاريخ يصعب علينا أن نختزلها فى نظرية "أكسيوماتيكية" معينة **«فالعقل يتطور بمعنى أن مثال النظام وسيرورة بناء المفاهيم الجديدة تتغير عبر التاريخ. وبذلك يتقدم العقل الرياضى والذى، بعيدا عن أن يكون جسماً منغلقاً من المبادئ، هو خيال مقعّد** réglée **ولكن إبداعى»**[3]. غير أن طبيعة هذا التطور الذى يحدث للعقل عبر التاريخ يختلف باختلاف المضامين الفلسفية والنظرية.

"فوايتهايد" يرى أن **«تطور العقل بداية من أدنى السلم، حدث كلية بطريقة برغماتية»**[4]، ووجهة النظر هذه هى التى تعطى للعقل صبغة أداتية يصعب عليها أن تحيلنا إلى العقل بمعناه الإبداعى، **«حيث يمكن للعقل ويتعين عليه أن يتعرف أيضاً بما يفوق العقل (باشلار) ومن الأكيد أن كل إبداع وكل ابتكار يتضمنان قسطا مما يجاوز العقل، والعقلنة تستطيع فعلا أن تفهمه بعد الإبداع، لا قبله يمكن للعقل ويتعين عليه أن**

---

(١) المرجع نفسه - ص ١٥.

(٢) Cilles Gaston Granger: op, Cit. P: 19.

(٣) Ibid. P66.

(٤) ALFRED N. whitechead: la fonction de la raison - et autres essais - traduction de philippe devaux Ed. Payot. Paris 1969 - P.112.

يتعرف بأن هناك ظواهر هى فى نفس الوقت لا عقلانية، وعقلية ومحايدة عقليا، وفائقة على العقل كالحب ربما»[1]. فالعقل المعاصر يرتبط أكثر بالممكن والصدفة وسجنه ضمن صيغ الضرورة أو الحتمية التى أصبحت تقليدية، يقوّض قدرته على الإبداع وعلى تحقيق الطفرات لأن العقل ليس شيئاً متحققاً وجاهزاً بل هو مفهوم يستمد مشروعية وجوده من إمكانياته الدائمة على التحقق وهذا المعنى المتفتح للعقل هو ما يمكن أن نعتبره من بين الأسس المتميزة للعقلانية المعاصرة التى لا تحقق موضوعيتها بانفصالها عنا، بل وأساساً من انبثاقها من داخلنا وهذا ما يدفع غادامير GADAMER إلى القول« **إن الفكر شرارة تشرع فى اللمعان داخل الكائن ذاته، مرئى كضوء ينتشر فى الظلمات المحيطة وتصل بفضله الكائنات إلى نوع من الشفافية وبفضل الإعداد والأبعاد [نلمس] نظاماً فى السماوات بين الشعوب أو داخل روح كل واحد. هذه هى العقلانية، حسب مفرداتنا** vocabulaire **ونسأل أنفسنا ونقول ما هذا: ما الذى يتمظهر فى كل شىء وبداخلنا فى الوقت نفسه؟..»**[2].

وبمكنات العقل المعاصر تؤدى به إلى أن يتمفصل عبر مفاهيم ذات أفق تعددى، وهذا التجلى يسميه إدغار موران "بالعقل المركب" «**محكوم علينا أن [نمارس] التفكير باللامتيقن، التفكير المملوء بالثقوب التفكير الذى لا يملك أى أساس مطلق من اليقين. ومع ذلك فنحن قادرون على التفكير فى ظل هذه الظروف المأساوية»**[3].

لأن العقلانية لم يكن لديها أبدا «**الإدعاء بأن تستنفذ فى نسق منطقى الواقع فى كليته، ولكنها [تملك] الإرادة فى أن تحاور من يقاومها فكما كان يقول شيكسبير "هناك أشياء كثيرة فى العالم أكثر من كل فلسفتنا" إن الكون هو أكثر غنى مما تستطيع أن تتمثّله بنيات دماغنا، مهما بلغت درجة تطورها»**[4]. ومن ثم فإنه لا يجب أن يساء الظن بالعقل المركب لأنه لا يريد أبدا أن يدعى أن المعرفة متعذرة أو مستحيلة وأن

---

(١) إدغار موران : مرجع سبق ذكره - ص١٦.

(٢) H. G. Gadamer: 1 art de comprendre - écrits II herméneutique et champ de Iéxpériénce humain ed. Aubier France septembre 1991.

(٣) Edgard Morin : Introduction à la pensée complexe - coll. Communication et complicité - E. S. F. éditeur - 5éme tirage. Mars 1994 - Paris - P.93.

(٤) Ibid. P. 94.

العقلانية فى صيغتها السابقة مخطئة بشكل كلى، إنه يريد فقط أن ينبّهنا أن ذلك الشكل من العقل لم يعد قادراً على استيعاب العالم المعاصر بكل ثرائه وتناقضاته «**إن التفكير المركب Complexe لا يرفض أبداً الوضوح، والنظام، والحتمية. إنه يعرف عدم كفايتها، ويعرف أنه لا يمكن أن نبرمج الاكتشاف، والمعرفة، ولا حتى الفعل. إن التعقيد la complexité يفترض استراتيچية (...). والتفكير المركب لا يحل المشاكل بشكل تلقائى ولكنه يعتبر مساعدا للاستراتيچية التى يمكن أن تحلها**»(١).

لقد عرفت العقلانية فى شكلها المهيمن انتقادات عديدة من طرف مختلف الفلاسفة المعاصرين، وتعد مدرسة فرانكفورت من بين أبرز الموجهات الفلسفية التى ركزت تنظيراتها على نقد أشكال تمفصل هذا العقل الذى ورثنا أسسه من العقل الأنوارى لذلك فقد عمل فلاسفة « **النظرية النقدية(.) على الكشف عن قطاعات العقلنة فى النظام الاجتماعى ولكن منطلقين من أرضية العمل العقلانى لأنهم يسلمون بأن العقلنة أصبحت "محايثة لتطور البشرية" غير أنها استعبادية أكثر مما هى تحررية بسبب كونها أفرزت عالماً صارماً فى ضبطه الإدراى يلغى الاختلافات ويستبعد ما هو خاص وينزع عن الفرد كل دلالة**»(٢). لأن العقل الفلسفى يريد أن يسهم فى بلورة البعد الإنسانى للعقلانية المعاصرة ويريد أن يكون شاملاً ومنفتحاً ومحيطاً إلى أبعد الحدود حتى يستطيع أن يتمثل الإنسان فى تعدديته وثرائه الوجودى والإبداعى حتى لاتمنح لدغمائيتى ومرضى العقل فرصة لأن يجعلوا منه سجناً شاسعاً للإنسان. لأن «**العالم، وبالإضافة إلى العصابيين يشتمل على عدد لا بأس به من "العقلانيين" الذين يشكلون خطراً على العقل الحى، وبخلاف ذلك فإن قوة العقل مرتبطة بإعادة ولادة معنى فلسفى، يبرر بطبيعة الحال التعبير العلمى للعالم، ولكن فى إطار نظامه وفى مكانه داخل كلية العالم الإنسانى**»(٣).

---

(١) Ibid. P. 110 - 111.

(٢) محمد نور الدين أفاية - الحداثة والتواصل فى الفلسفة النقدية المعاصرة نموذج هابرماس إفريقيا الشرق - المغرب- ط١ - ١٩٩١ - ص٣٣.

(١) Maurice Merleau - Ponty : Eloge de la philosophie et autres essais coll. NRF Ed. Gallimard paris 1983. et 1960 P:320.

ويمكن القول على العموم أن مفهوم العقل سيبقى من الناحية الفلسفية قادرا على تعقل ذاته باستمرار من أجل تجاوزها لأنه يرفض الاستكانة والخضوع وكل أشكال القوالب الجاهزة، وحتى حينما يكون منافياً لذاته فإنه يفعل ذلك من باب رغبته فى إغنائها وفتحها على أفاق جديدة «**فليس هناك عقل كونى ومجرد لا يستقر داخل الأفراد أى داخل مفهوم تجريد الذات الاجتماعية**»(١). فكل أشكال العقلنة مهما كانت درجة تطورها تتخذ كنقطة استقطاب لها الذات العارفة، لأن نتاجات العقل الممجدة له والعاملة على تحطيمه وكل تمظهرات الذات المعلنة عن نفسها والمغفلة لها، لا تملك إلا أن تعقل ذاتها قبل أن تعقل العالم ويكون ذلك التعقل تجاوزا للقوانين الداخلية للعقل الذى يمثل دائرة لا تنغلق مثل كل الاختصاصات والفلسفات والعلوم فلا شىء يمكن أن ينغلق حقيقة حتى ولو أراد ذلك من أبدعوه وحتى وإن كان عتيقاً ومتحجراً ولا وجود لإمكانية الانكفاء على النفس فيما يخص ما ينتجه الإنسان من أفكار، ففعل التجاوز هو من الخصائص المحورية للذات الإنسانية فالفرد يريد تجاوز وضعه وذاته وفكره والطفل يريد تجاوز محيطه وأسرته، و"القوانين" التى توضع لمنع ذلك التجاوز تنتهى إلى الفشل.

٢ - بين النسق والنظرية :

إن المفاهيم المستعملة على المستوى الإجرائى على اختلاف الاختصاصات والفروع المعرفية، ليست واضحة فى مجالات توظيفها ويعبر التباسها وغموضها أحد خصائصها التى تجعل الفعل التنظيرى مفتوحاً على الإبداع والتأويل المتواصلين، وكل التعاريف مهما بلغت صرامتها تبقى مجرد اجتهادات، ويمكننا أن نزعم أن تلك الوضعية المفاهيمية المتداخلة تعتبر فى معظم الأحوال ميزة إيجابية وليست إعاقة نظرية كما يمكن أن يتبادر إلى الذهن.

فالنظرية عادة ما تشير إلى بناء فكرى ما وتوظف من خلال حملة من التعارضات مثل: النظرية / الممارسة، الفكر/ الفعل، المعرفة المحضة/ المعرفة المطبّقة، نظرية/ معرفة

(١) Alain Caillé : splendeur et misères des sciences sociales Iibrairie Prez Genève - Paris Mars 1986. P.88.

يقينية وتتداخل النظرية أحياناً مع المذهب doctrine، وهى تفيد فى معناها - كما يؤكد ذلك آلان لورشير Lercher - تركيبا منظماً لفرضيات توضيحية فى سياق يتعارض مع معرفة معينة أو فرضية خاصة، كما أنها تمثل حالة معارفنا فى اختصاص معين، لذلك فإن النظرية التى تتشكل فى تضاد مع تقدم المعرفة تصبح مذهباً أما فى النسق فيشير إلى مجموع عناصر مستقلة تشكل كلا منظما ويكون أحيانا مرادفا لمعنى النظام، ويستخدم فى الفلسفة والعلم فى كثير من الأحيان بصيغة غير مباشرة، وفيما يتعلق بعلاقة النسق بالنظرية يمكن القول أن النسق أوسع من النظرية، لذلك فإن نسق الكاتب هو مجموع نظرياته، كما أن النسق هو أوسع من البنية التى تهتم بالطريقة التى تنتظم من خلالها عناصر نسق ما مع باقى العناصر داخل النسق نفسه، وهى تأخذ فى سياق الاستعمال الدارج معانى متعددة كالبناء المعمارى أو التنظيم الداخلى أو الشكل المركب، فى حين تعنى فى اللغة الاصطلاحية العلاقات الموجودة بين عناصر مجموعة منتظمة»[١].

وهذا الارتباط بين النظرية والنسق نجده فى أكثر من اختصاص خاصة فى مجال العلم لأن «**إعداد الفرضيات والنظريات يتم بغرض تشكيل نسق [خاص] بجزء من التجربة الإنسانية وتوقع تجارب جديدة...**»[٢]. إن النظريات والأنساق تسعى دائماً إلى تشكيل وإعادة تشكيل أسسها وفرضياتها وحتى بديهياتها، مما يسمح بالقيام بتوظيف أكثر إجرائية للمفاهيم الأساسية حتى تكون قادرة على تحقيق الأهداف النظرية المرجوة «**فالقوة والنظام النظرى لنسق من الأفكار ليست لهما فقط قيمة جمالية: فنسق الأفكار المنظم بشكل جيد يسهل عملية الاستيعاب والتحصيل (مما يشكل فى حد ذاته امتيازا بسيكولوچيا)، وهو ما يجعله من جهة أخرى قابلاً للنقد والتقييم وموضعاً للتصحيح أو التعويض من طرف نسق آخر**»[٣].

---

(١) انظر Alain Lercher : les mots de la philosophie - Belin - Paris . 1985. فى سياق الصفحات التالية : 154 - 155 - 321 - 322 - 317.

(٢) Mario Bunge : Philosophie de la physique - coll. : science ouverte - traduit de l'anglais par Française Balibar Ed de seuil Paris - 1975 . P:14.

(٣) Ibid. P:35.

لكن قابلية النسق للتجاوز والتنظيم ليست مرتبطة فقط بقوة ونظام إطاره النظرى ولا حتى بالوضوح والدقة، فقد يكون النسق مضمراً أو غامضاً دون أن يمنعه ذلك من تأدية وظيفته النظرية ليتم تجاوزه فيما بعد، حينما تقتضى الضرورة الإجرائية للبحث - والتى هى فى الأساس مركبة ومعقدة ومن ثم غير متوقعة دائماً - أن يتم تأسيس نسق جديد لن يكون بالضرورة منافيا كليا للنسق السابق، لأن القطيعة بالمعنى البشلارى تجعل من التوليفة الجديدة شكلا من أشكال الاستمرارية مع المعطى القديم أو المتجاوز.

إن «**تأسيس الأنساق العلمية يستوجب وضع علاقة متنوعة، بمساعدة قوانين أو مبادئ نظرية لمختلف جوانب العالم التجريبى، التى تتميز هى ذاتها بمفاهيم علمية. واعتبارا لذلك فإن مفاهيم العلم هى عقد noeuds لشبكة من العلاقات المتبادلة نسقيا حيث تشكل القوانين والمبادئ خطوطها**»(١). لأن الأنساق لا تبنى خارج المفاهيم التى تتحد ويتضح سياق عملها ومجال إجرائيتها انطلاقا من قوانين ومبادئ محددة تضبط المفاهيم وتمنعها من الغوص فى العموميات المفرطة حتى لا تبتذل. فالمفاهيم حتى وإن كانت تقبل حدا معينا من الغموض الذى تستدعيه طبيعتها النظرية، فإنها لا تقبل أن تكون شكلية ومبهمة إلى أبعد الحدود.

وانطلاقا من الاعتقاد الذى يفيد أن النظرية متضمنة فى النسق فإنه يمكننا أن نشير إلى ملاحظة أمبرتو ايكو ECO التالية : يقول:« **إننا لا نعتقد أنه بالإمكان القيام بالبحث النظرى دون أن تكون لنا الشجاعة لأن نقترح نظرية، أى نموذج أولى يمكنه أن يفيد كموجه للخطاب. ونعتقد من جهة أخرى أن كل بحث لا يجب عليه أن يتردد فى القيام بإبراز تناقضاته الخاصة وعلى إظهارها [كذلك]، حتى عندما لا تكون جلية**»(٢). لأن النظريات هى بمثابة استجابة لضرورات يتطلبها البحث والتفكير فى مراحل معينة من تشكله وذلك ما يجعلها نسبية ومؤقتة حيث يرتبط وجودها بالدور الذى استدعيت من أجل القيام به «**إن النظريات تأتى وتختفى بسرعة كل واحدة**

---

(١) Caerl Hempel : Eléments d'épistémologie - traduction de bertrand Saint - Sernin Ed Armand colin Paris jan 1994 P. 146.

(٢) EMBERTO ECO : La structure absente introduction à la recherche sémiotique ED Mercure de France Paris 1972. P.12

صالحة فى لحظة ما لترتيب أحداث معروفة وكل نظرية تظهر بدورها عجزها على التكيف مع الأحداث المكتشفة حديثاً، وفى العلم، [نلاحظ] أن مبتكرى النظريات ذاتهم لا يعتبرونها سوى افتراض مؤقت»[1]. فتعدد النظريات وتسارع وتيرة انتشارها هو جزء من قدرة الإنسان على الإبداع وهى كذلك جزء من رفضه - انطلاقا من العقل المنفتح - لأن تتحول النظريات إلى مذاهب جامدة تعيق الهدف الذى وجدت من أجله فى الوقت الذى كان يفترض أن تخدمه.

والنزوع النسقى فى العلم والفلسفة يمكن أن يفسر من منطلق رغبة الإنسان فى أن يعطى لمعارفه وأفكاره قدراً مقبولاً من الاتساق والانسجام، لذلك فإن «**النظرية العامة للأنساق عليها أن تصبح وسيلة منهجية هامة، تراقب وتحفز الانتقال من مبادئ اختصاص ما إلى اختصاص آخر، وبذلك لن يكون من الضرورى أبداً القيام بنفس الاكتشافات مرتين أو ثلاث مرات [بالنسبة] لنفس المبادئ وفى اختصاصات بعضها منعزل عن البعض الآخر، وفى نفس الوقت ومن خلال صياغتها لمواصفات دقيقة فإن النظرية العامة للأنساق تحذر من التمثيلات** analogies **السطحية التى تعتبر غير مهمة على المستوى العلمى، ومضرّة من خلال نتائجها التطبيقية»**[2]. وهذا الدور الذى تقوم به النظرية العامة للأنساق على مستوى العلوم من أجل إعادة هيكلتها، لا يجعلها تستثنى من دائرتها حقل الفلسفة التى تعتبرها علمية فى مضمونها فعلى «**المستوى الفلسفى فإن النظرية العامة للأنساق فى شكلها المتبلور، سوف تضع محل ما يسمى بـ"نظرية المقولات" (..)، نسقاً دقيقاً من القوانين المنطقية - الرياضية والمعانى المجردة** notions **التى كان يعبر عنها سابقاً بلغة مشتركة حيث ستصاغ [مستقبلا] فى تعبير مضبوط وخالى من الالتباس وهو الشىء الذى لن توفره سوى اللغة الرياضية»**[3]. ورغم هذه النزعة "العلموية" والوضعية الواضحة والمغلفة بشىء من الدغمائية والوثوقية، فإن صاحب النظرية العامة للأنساق يعود فيما بعد إلى القول: «**إن من**

---

(١) BERTRAN RUSSELL Méthode scientifique en philosophie trduit de l'anglais par: PH Devaux ED J VRIN Paris. 1929.

(٢) Luduing von bertalanffy : Théorie générale des systèmes traduit par Jean - Benoist chalirol ED Dunod Paris nouvelle édition september 1993 p.78.

(٣) Ibid. P.83.

المظاهر المميزة للتطور الحديث للفكر العلمى، هو عدم وجود أى "نسق شامل" ووحيد يغطى كل [المجالات] فكل البناءات العلمية هى نماذج تقدم بعض المظاهر أو بعض الإمكانات حول المستقبل»(١). لأن النسق يأتى من الناحية الإجرائية من أجل ضبط مختلف المعارف بشكل منهجى ولا يشكل حضوره بأى حال من الأحوال مبرراً للانغلاق والهيمنة النظرية التى تؤدى تدريجياً إلى إعاقة سيرورة الإبداع الذى أتى فى بداية الأمر من أجل تنظيمها. يقول دولودال. G. Deledale **«لا شىء يمنع الفيلسوف من بناء نسق، بشرط أن يعترف بطابعه الزائل. وما يجب أن يقدمه الفيلسوف المعاصر ليس فقط نسقاً للتفكير ولكن منهجاً من أجل التفكير. فالنسق يمضى، والمنهج يبقى، إنه [يمثل] اتفاقاً وتسوية** Transaction **أداتية»**(٢). ومع ذلك فليس هناك ما يجعل المنهج غير قابل لأن يتحول إلى نسق فالحدود الفاصلة بينهما غير واضحة رغم كل الإدعاءات النظرية التى يوفرها الفكر فى أعلى درجاته التقنية. وحتى لا يكون النسق مفهوماً قابلاً للتجاوز فى حد ذاته - بعد أن يكون قد ضيّع كل إمكانية على التأثير الإجرائى - عليه أن يتخلص من مفهوم "الكلية" الذى يرتبط به لينصب التركيز على صفة المجموع المنظّم لأن خاصية النظام ربما ستبقى هى الوحيدة الضامنة لاستمراريته، خاصة وأن الإنسان حتى حينما ينظر للفوضى فإنه يبقى مسكوناً بـ "فوبيا" Phobie التشتت والضياع فالنسق فى نهاية المطاف **«ليس نتيجة لاستعمال منهج ما أكثر ملاءمة من مناهج أخرى أو أكثر صواباً أو أكثر حداثة: ليس هناك منهج يمكننا أن نطبقه بالمطلق وكأنه كان هناك موضوع فى البداية وأتى بعده خطاب سعى إلى تمثل هذا الموضوع»**(٣). ولكى تكون الأمور أكثر وضوحاً من الضرورى أن تشير إلى أن النسق ليس شرطاً يجب توفره فى عملية الإبداع، لأن الخطاب الفلسفى - وهو الذى يهمنا فى هذا السياق - يستعمل النسق استعمالا أداتيا ووظيفياً وليس كعنصر من عناصر النشأة والتأسيس وصفة المذهبية التى تلتصق ببعض الفلسفات جاءت كنتيجة لقراءات وثوقية لاحقة ولم تكن أبداً عنصرا فى عملية البناء النظرى والإبـداعى. يقـول باريل

---

(١) Ibid. P.978.

(٢) G. Deledale : la philosophie Américaine - ED - I'age d'homme - Lausanne Suisse 1983 - 2é ED De Boeck université Bruxelles 1987 2é tirage. 1990. P.252.

(٣) ERIC WEIL Logique de la philosophie librairie - J-Vrin - Paris 1967 2ème édition P.340.

Y. Barel «**إن فكرة النسق تعتبر إشكالية، بالمعنى القوى أو الدقيق للكلمة، أى طريقة خاصة فى اكتشاف المشاكل التى يمكن أن لا تلاحظ بأسلوب آخر وليست لها، فى حد ذاتها، القوة لإيجاد حل لمشاكلها. تماماً مثلما أن الحل لم تتمكن من إيجاده تيارات فكرية أخرى، وهذا ما يسمح لفكرة النسق بالمحافظة على شىء من الفعالية كمحفز للقلق والانشغال النظرى**»(١). فالنسق هو واجهة الفلسفة ومن الصعب علينا أن نعتبره كرواق من أروقتها الداخلية، وهو بهذا المعنى فقط يمكن أن يكون شكلا من أشكال التعبير الفلسفى الواعى والمتيقظ وبنفس المعنى كذلك نكون قد ابتعدنا إلى حد بعيد عن النسق بمعناه البنيوى واقتربنا أكثر من النسق كافتراض Virtualité كما يسميه بول ريكور، أى نسقا حيوياً يفضل الحرية على الإكراه والابتكار على القانون، وهذا ما يدفعه إلى القول: «**ربما نحن فى الطريق نحو اللغة، رغم أن اللغة هى الطريق ذاته وهذا الطريق الهيدغيرى نحو اللغة لن أسلكه، ولكن تسمحون لى (..) أن أقول أننى لم أغلقه لكونى لم افتحه بشكل صريح لم أغلقه انطلاقا من أن مسلكنا تمثل فى الانتقال من انغلاق عالم العلامات إلى انفتاح الخطاب**»(٢). وفى الخطاب متسع لكل أشكال النشأة ولحظات التجديد والتجاوز.

٣ - المناهج والمقولات :

إن الحديث عن المنهج فى الفلسفة هو حديث عن مناهج متعددة بتعدد الفلسفات واختلاف الأنساق وهو فى الأساس محصلة للتفكير الفلسفى وليس شرطا أولياً يفترض الالتزام به كليا من أجل صياغة المفاهيم والأفكار، نعم هناك مبادئ عامة خاصة بالمنهجية الفلسفية يسترشد بها الفيلسوف فى عملية إبداعه لكنها لا تشكل فى حد ذاتها منهجاً جاهزا لتشكيل الخطاب الفلسفى.

وهكذا فعندما «**ندرس نصا "على ضوء" هذا المنهج أو ذاك فإننا نعتقد - أو نفترض- أن النص غامض مبهم يكتنفه ليل كثيف دامس وإلا فما الحاجة إلى الضوء؟ لكى لا نضل أو نحيد عن الجادة، فإننا نستعين بمصباح منهجى كلمة "منهج" تتضمن**

---

(١) Y. Barel : l'idée de système dans les sciencse sociales - rew : Esprit - jan 1977 - P.76.

(٢) Paul Ricoeur. Revue (Esprit) article la structure, le mot, L'événement 35ème année N: 360 mai 1967.

العديد من المعانى اللغوية والثقافية: المسلك الواضح، الطريق المستقيم السبيل البيّن المستوى.. هكذا يتحول الدارس إلى مخلق عجيب، إلى مشاء يقتحم الليل وفى يده سراج يستنير به.

هذا التصور، الذى لا نفطن إليه فى الغالب، يتراءى أيضاً عندما يتعلق الأمر بنصوص "واضحة" نصوص يوجد فيها مصباح داخلى يزيح الظّلمة عنها لكن الدارس يعتقد أن هذا الوضوح مفتعل، يهدف إلى إخفاء أمور لا يراد الإفصاح عنها، أو على الأقل يعتقد أن الوضوح نسبى ومحفوف بمناطق الظلام»[1]. فالدور الإجرائى للمنهج يبقى أهم من المنهج فى حد ذاته، لأن الغرض يتمثل فى استكمال عناصر الخطاب الفلسفى، وليس فى إقامة منهج كامل وجاهز. قد يكون المنهج، بطبيعة الحال جزءاً من الاهتمامات الأساسية للفيلسوف مثلما هو الحال بالنسبة لديكارت على سبيل المثال، خاصة حينما يكون الفيلسوف مؤمناً بإمكانية تحويل المعرفة الفلسفية إلى معرفة علمية أو قابلة لأن تصبح كذلك، لكن فكر الفيلسوف لا يمكن أن يختزل إلى مجرد نظرية فى المنهج، وإذا كان دلبوس Delbos قد بين «**فى الموسوعة الكبرى فى نهاية القرن الماضى، أن تقدم الفكر الفلسفى لا يقوم فقط على صياغة مشاكل الفلسفة، ولكن كذلك فى البحث عن مناهجها، هذا المنهاج الذى لا يتميز عن الطرق المستعملة فى أى ميدان آخر من المعرفة، وهى التجريد والتجديد، والتحليل والتركيب، والاستقراء والاستنباط وقد تتميز طرق الفلسفة بسمات نوعية ترجع إلى طبيعة المشاكل**»[2]. فإنه تجدر الإشارة إلى أن أغلب المناهج الفلسفية هى مناهج مضمرة وهى فى نهاية المطاف محصلة لمسار الفيلسوف خلال سيرورة إبداعه، وعموماً فإن «**الفلسفة ليس لها [فرصة] اختيار منهجها فالسؤال ذاته هو المتسبب فى استنتاج الجواب، نظرا لأن السؤال كان هو الأخير .(.) إن الإجابة الفلسفية هى إجابة متولّدة من التساؤل**

---

(١) عبدالفتاح كليطو: الحكاية والتأويل - دراسات فى السرد العربى - دار توبقال للنشر - الدار البيضاء - المغرب - ط١ - ١٩٨٨ - ص٧.

(٢) الطاهر وعزيز: تاريخ الفلسفة: منهاجه وقضاياه - شركة بابل للطباعة والنشر والتوزيع - الرباط - المغرب- مارس - ١٩٩١ - ص٦٢.

ذاته»[١]. ومع ذلك فالفلسفة كثيرا ما تستخدم تقنيات تساعدها على بلورة أفكارها فى سياق مفاهيم مترابطة، فتوظف ما يسمى "بالمنهج التحليلى" و "المنهج التركيبى" حيث يكون حضور الجانب التركيبى فى سياق عرض الأفكار أما الجانب التحليلى فيوظف لمعالجة المشاكل النظرية التى تواجه الفيلسوف أثناء عملية التعبير الفلسفى، فالمنهج شىء مؤقت وعابر ولا يملك أى نوع من الاستقرار إلا من خلال بعض المفاهيم العامة: كالبرهان والتمثيل أو الجدل . . . فكل منهج كما يوضح ذلك وايتهايد «**له تاريخه الخاص الذى يبدأ بحيلة من أجل تسهيل عملية تحقيق بعض الاندفاعات الحيوية المتولدة (..) [مثلما] أن ولادة منهج هو فى ماهيته، اكتشاف لحيلة من أجل العيش**»[٢].

لذلك فإن مفهوم "منهج" يمارس اتجاه من يستعمله أو يدرسه نوعاً من التضليل إنه يوهمه كما يؤكد ذلك ماريو بونج Bunge، بأن هناك تشكيلة من الحلول الشاملة والمعصومة يمكن لأى كان أن يستعملها ويوظفها من أجل الحصول على النتائج المرجوة أو من أجل إبداع أفكار. فالحلول إن وجدت فهى ليست أكثر من استراتيجيات للبحث، لذلك فإنه يمكن القول أن الشخص الذى يملك مواهب قادر على إبداع مناهج جديدة لكن المنهج لا يمكن أن يبدع الموهبة، كما أن منهج أى بحث فى نهاية المطاف جزء من ذلك البحث [٣]ويصعب تمثله بعيدا عنه.

ويأخذ المنهج فى الفلسفة أحياناً بعداً نقدياً، كما أنه محاولة من أجل توفير معرفة منتظمة حول واقع أو موضوع ما، وذلك من منطلق إمكانات الكائن البشرى على تمثل العناصر القابلة للمعرفة بشكل قصدى. ويُقسم المنهج فى شكله العام إلى منهج نظرى ومنهج تجريبى، فالأول فلسفى والثانى علمى، والحديث عن الفلسفة التجريبية لايقصد منه اعتمادها على المنهج التجريبى. بمعناه وخطواته العلمية، لأن التجريبية فى سياق

---

(١) Michel Meyer : Encyclopedie Philosophique universelle publié sous la direction d'André Jacob IV le discours philosophique volume dirigé par : Jean - François MATTEI Ed. PUF I^{ère} ed. Nov 1998. P1621.

(٢) ALFRED N Whithead : la fonction de la raison - op. cit. p:113.

(٣) انظر Mario bunge : épistémologie : op. cit., pp:31-46.

الفلسفة ترتبط بإمكانية المعرفة انطلاقا من الحس والتجربة المباشرة أما المنهج العلمى التجريبى فله خطوات تكمن فى صيغتها المبسطة فى تحضير الذكاء على تعقل الأشياء والظواهر واختصارها وبلورة عملية الملاحظة ثم البرهنة على النتائج فى سياق قانون.

إننا فى سياق تعاملنا مع المنهج فى الفلسفة ننطلق من فرضية مؤداها أن المنهج هو مجرد مقولة أو مفهوم يتمفصل فى الخطاب الفلسفى ليسهم فى تطوير إمكانياته التعبيرية مثله فى ذلك باقى المفاهيم، لأننا لا نعتقد أن هناك شيئاً خفياً يمكن أن يكتشف فى الفلسفة من خلال توظيف أو إبداع منهج "سحرى" إن ما يسمى عادة بمناهج الفلسفة نجد أنها تقترب إلى حد بعيد من أسلوب الكتابة الفلسفية، والأسلوب الخاص بكل فيلسوف لا يمكن أن يعاد تطبيقه أو إبداعه مهما كان درجة وفاء الفيلسوف اللاحق لمن سبقوه من الفلاسفة، ولهذا السبب ولغيره من الأسباب كذلك فإنه لا يمكن لأى فلسفة أن تدعى العلمية مهما بلغت درجة انضباطها و "دقتها" ونسقيتها على مستوى التعبير والصياغة ووضوح المعلومات "ويقينيتها".

والمقولات فى الفلسفة المعاصرة تعنى فى معظم الأحيان الألفاظ التى تدخل فى صياغة المعرفة وهى مرادفة فى الكثير من الاستعمالات للمفهوم بمعناه التقنى.

ويشير جميل صليبا فى قاموسه إلى أن «**المقولة هى المحمول، ووجهة إطلاقها على المحمول كون المحمول فى القضية مقولا على الموضوع وجمعها مقولات، وهى الأجناس العالية التى تحيط بجميع الموجودات، أو المحمولات الأساسية التى يمكن إسنادها إلى كل موضوع، وعددها عند أرسطو عشرة، وهى: ١- الجوهر، ٢-الإضافة، ٣ - الكم، ٤ - الكيف، ٥ - المكان (الأين)، ٦ - الزمان . (متى). ٧-الوضع، ٨ - الملك، ٩- الفعل، ١٠ - الانفعال.**

والمقولات عند (كانت) هى التصورات الكلية الأساسية التى يتضمنها العقل المحض، وهى صور قبلية للمعرفة تستنبط من طبيعة الحكم فى مختلف صوره، وتمثل الجوانب الأساسية للتفكير النظرى، أو الاستدلالى، وهى أربعة أجناس كبرى : ١-الكم، ٢- الكيف، ٣- الإضافة، ٤- الجهة.. وكل واحدة من هذه المقولات الأربع ثلاثة أقسام بحيث يكون مجموعها. ١٢ مقولة. (...) والمقولات عند (رينوفيه) هى القوانين الأولية والعلاقات الأساسية التى تحدد صورة المعرفة وتنظم حركتها، وعددها

عنده مختلف عن عددها عند (كانت)، لأنه يضيف إليها مقولتى الزمان والمكان وقد أطلق المتأخرون اسم المقولات على التصورات [المفاهيم] الكلية التى تعود العقل أن يرجع إليها أحكامه وأفكاره حتى أن بعض الوجوديين يطلقون اسم المقولات على القوانين الأساسية التى تحدد صور الانفعالات الوجدانية»(١). ويشير أندرى لالاند Lalande فى معجمه إلى أن كانط فرق بين نوعين من المقولات الأولى قبلية وهى المفاهيم الأساسية التى تعتبر أساس المعرفة، والثانية بعدية وهى بالنسبة له أشباه مفاهيم أو أفاهيم.

والمقولة فى أصلها الاشتقاقى اليونانى تعنى "ما نقوله عن شىء ما أو عن شخص ما" وتعنى فى الاستعمال العادى كل مجموعة مشكّلة مضمونة ولا تخضع للنقاش أما من الناحية الفلسفية فهى خاصية أو ميزة أو فكرة تسمح بتشكيل مجموعة فى سياق غير مشروط(٢). وتوظف المقولة فى الاستعمال المعاصر بعيدا عن معناها المنطقى، حيث تفيد على العموم المفاهيم العامة المرتبطة بعملية التفكير بمختلف أوجهها، وحينما تستخدم فى الخطاب الفلسفى المعاصر يكون معناها مرادفاً للفظ مفهوم، لأن معناها الأصلى الذى يعود إلى المنطق الأرسطى لا نكاد نعثر عليه خارج الدراسات المتخصصة فى المنطق وتاريخ الفلسفة خاصة ما يتعلق منها بفلسفة أرسطو فى جانبها اللغوى والمنطقى.

ولأن المفاهيم فى العلم كانت أوسع انتشاراً من المقولات، فإن الخطاب الفلسفى المعاصر دأب على استعمال لفظ مفهوم فى عملية التعبير الفلسفى، وبدل الحديث عن مقولة الواقع أو الكلية أو الجوهر، فإن الصياغة المنتشرة هى القول بمفهوم الواقع والكلية والجوهر. لذلك فإن هذا الوضوح المفاهيمى يصبح ضرورياً حينما نعلم أنه من **«المستحيل أن نمارس الفلسفة دون الحصول على حد معين من التقنية [الفلسفية] وعلى المفردات** Vocabulaires **المناسبة، قد يبدو أنه من السخافة العمل على التذكير بذلك، غير أنه ربما لا يعتبر غير مجدى فى إطار ثقافة عادة ما ينسى فيها الكثير من العلماء كل شروط الجدية حينما يغادرون مجال اختصاصهم»**(٣). وحتى المشتغلون فى الحقل

---

(١) جميل صليبا : المعجم الفلسفى - مرجع سبق ذكره - ص ٤١٠ - ٤١١.

(٢) انظر Alain Lercher : les mots de la philosophie op cit. P: 113

(٣) Gerard Fourez : la construction des sciences des logique des inventions scientifiques- Introductions à la Philosophie et à l'éthique des sciences 3ème édition revue Ed de Bock université Bruxelles 1996. P.12.

الفلسفى يوظفون مختلف الصياغات المفاهيمية دون أن يوضحوا معناها لذلك فنحن عادة ما **«نتحدث عن معنى مجرد notion حينما نحيل إلى الطريقة التى نتكلم بها عن شىء من الأشياء فى الحياة العادية دون أن يكون ذلك بدقة كبيرة»**[١] ونفس الشىء يحدث بصدد مفاهيم أخرى متضايفة أو مرادفة، حيث **«نتحدث عن الأفكار حينما نعتبر أن معنى مجرد notions محدد بشكل دائم، وفى استقلالية عن سياقه التاريخى، وبذلك فإن بعض الأشخاص يتحدثون عن المعنى المجرد للصداقة وكأنهم [يتحدثون] عن فكرة أزلية»**[٢].

إن ما يميز المفاهيم الفلسفية فى مجملها هو أنها تحيل لذاتها أكثر من إحالتها لأشياء خارجة عنها وهى بذلك سواء كانت مقولة أو مفهوما تقنياً فإنها تختلف اختلافا، أساسياً ومحورياً عن الكثير من التسميات القريبة منها كمفهوم العلامة الذى يتحدد انطلاقا من علامة أخرى، فمن المبادئ الأساسية للعلامة هو أن يتحقق شكلا من أشكال التواصل بينما يبقى المفهوم مرتبطاً بعملية الفهم والمعرفة بشكل أساسى دون أن يشترط توفر عنصر التواصل لأن النظام السيميوطيقى هو نظام تواصلى، يقول أمبرتو ايكو ECO **«السيميوطيقا تدرس كل السيرورات الثقافية بوصفها سيرورة للتواصل..»**[٣].

لقد تعاملنا مع المفاهيم التى سبق ذكرها من منطلق أنها تشكل أعمدة أساسية للتعبير عن الخطاب الفلسفى، ولم نأخذ بعين اعتبار الكثير من التعاريف التى لا تسهم مباشرة فى عملية التعبير مثل التحديدات المرتبطة. بما يمكن أن نسميه بمنطلق الفلسفة وهو ما دفعنا إلى إغفال مضامين المناهج الفلسفية المتعددة التى تمت الإشارة إلى بعضها - من أجل التأكيد على المنهج كمقولة ومفهوم يحدد "هوية" الخطاب الفلسفى، لأنه وبصرف النظر عن مضامين ومحتويات المناهج فإن الحديث عن المنهج فى عملية التفلسف يعتبر أحد أهم المميزات التى يستند عليها فعل التفلسف.

---

(١) Ibid. P.194.

(٢) Ibid. P195.

(٣) EMBERTO ECO : la structure absente op, cit. P.30.